﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٧١ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ١٧٢ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٣﴾

[الشّعراء: 170 - 173]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

ليس بعد تضرّع المرسلين إلّا استجابةُ ربِّ العالَمين

لمّا دعا لوطٌ ﷺ ربّه في نهاية الأمر طالبًا النّجاة، بعد أن ضَيَّق عليه قومُه، وتمادَوْا في غيّهم، ويئسَ من هدايتهم، ناسبَ ذكرَ ما كان له وأهلِه منَ النَّجية، إلّا امرأتَه، حيثُ وقع عليها وعلى قومه العذابُ المعهود، فهو انتقالٌ من ذِكر الدّعاء، إلى ذِكر الاستجابة، وتفصيلُ ما حلَّ بقومه منَ العذاب.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَجُوزًا﴾: أصلُ (عجز) يدُلُّ على الضَّعْف، يُقال: عَجِزَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، فهوَ عاجِزٌ، أَيْ ضَعيفٌ[1]، والعَجْزَ نقيض القُدرة، ويقابلُه الحَزْمُ؛ لأنَّ العاجز ضعيفُ القوَى والرَّأي، وأَعْجَزَني فُلانٌ، إذا عَجِزتُ عَن طلَبِه وإدراكه[2]، والعجوز: اسمٌ للمرأة الطّاعنة في السّنّ؛ سُمّيت بذلك لعجزها، أي: ضعفِها ووهنِها، وهي صفةٌ للنّساء من خواصِّهنّ، فلا تحتاج لتاء التّأنيث، وجمعها: عجائز، والمقصود بالعَجوزِ في الآية: المرأةُ المُسِنَّةُ، والمُرادُ بها زوْج لوطٍ ﷺ.

2) ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾: أصلُ (غبر) يدُلُّ على البَقاءِ[3]، يُقالُ: غَبَرَ الشيءُ يَغْبُرُ أَي بَقيَ، وغَبَرَ الشيءُ يَغْبُر غُبوراً: مَكَثَ وذَهَبَ، والغابِرُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجز)، وسيبويه، الكتاب: 3/ 637، والسّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 4/ 380.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غبر).

الباقي، والغابِرُ: الماضي، وهو مِنَ الأَضداد[1]؛ وأَشْهَرُ إطلاقَيه هو المُنْقَضي؛ ولذلكَ يُقالُ: غَبَرَ بِمَعْنَى هَلَكَ[2]، والمراد بالغابر في الآية: المُتَّصِفُ بالغُبورِ، وهو البقاءُ بعد ذهابِ الأصحابِ أو أهلِ الخَيْلِ، أي باقيةٌ في العَذاب بعد نجاةِ زوجها وأَهلِه.

3) ﴿دَمَّرْنَا﴾: أصلُ (دمر) يدلُّ على الدُّخولِ في البيتِ وغيرِه، يُقالُ دَمَرَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، إذا دخَلَهُ[3]، والتَّدميرُ: إدخال الهلاك على الشَّيء[4]، والدَّمار هلاكٌ بالاستئصال، يُقال: دَمَر القومُ يَدْمُرون دَمارًا: أَي هَلَكوا، ودَمَرَهم مَقَتَهم ودَمَّرهم اللّه تَدْميراً[5]، والتَّدْميرُ في الآية معناه: الإصابةُ بالدَّمارِ وهو الهلاكُ، وذلك أنَّهم استُؤصلوا بالخَسْفِ وإمطارِ الحِجارةِ عليهم[6].

4) ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾: أصلُ (مطر) يدُلُّ على الغَيْثُ النّازِلُ مِنَ السَّماءِ[7]، يُقالُ: مَطَرَتْهُمُ السَّماءُ – بدونِ هَمزَةٍ – بِمَعْنَى نَزَلَ عليهم المَطَرُ، كما يُقالُ: غاثَتْهُم ووَبِلَتْهُم، ويُقالُ: مكانٌ مَمطورٌ، أَي: أَصابهُ المَطَرُ، ولا يُقالُ: مُمطِرٌ، ويُقالُ أُمطِروا – بالهَمزَةِ – بِمَعْنَى نَزَلَ عليهم مِنَ الجَوِّ ما يُشْبِهُ المطَرَ، وليس هو بِمَطَرٍ، فلا يُقالُ: هُم مُمطِرونَ، ولكِنْ يُقالُ: هُم مُمطَرونَ[8]، وتَمَطَّرَ الرَّجُلُ: تَعَرَّضَ للمَطَرِ، ومنه المُسْتَمطِرُ: طالِبُ الخَيْرِ[9]، والمقصود بالإمطار في الآية: إنزالُ المَطَرِ، وسُمّيَ ما أصابهم من الطّيْنِ المُتحجِّر مطرًا؛ لأَنَّه نَزَلَ عليهم من الجوِّ.

5) ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾: أَصلُ (نذر) يدُلُّ على تخويفٍ أو تخوُّفٍ، ومنه الإنذارُ: الإبلاغُ ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويف[10]، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، والجَمعُ: النُّذُرُ، والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[11]، والمقصود بالمُنْذَرين في الآية: الَّذي يُنذَرون، أي يُخبَرون بأمرٍ فيه ضُرٌّ لقَصْد الاتِّقاء منه.

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (غبر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 237، 19/ 181.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دمر).
(4) الراغب، المفردات: (دمر).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (دمر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 181.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مطر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 237.
(9) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (مطر).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (نذر).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

شـرطُ النَّـجـاةِ الإيـمـانُ والمـتـابـعـةُ، لا القُرْبَى والمخالفةُ

تُبيِّنُ الآياتُ الكريمة عاقبةَ قومِ لوطٍ ﷺ، حين دعا ربَّه فأجابه، ونجّاهُ وجميعَ مَن آمن به من أهل بيته، حيثُ نَجَوْا جميعًا إلّا تلك العجوزُ الشّمطاءُ التي كانت على عصمته، فإنّها آثَرت أن تكون منَ الهالِكين، لم يزجرها هَرمُها وشيخوختُها، ولم يرقق قلبَها عاطفةٌ على زوجها وبناتها، بل كان ميلُها مع قومها وهواها، ثمّ لمّا نجّى اللّهُ لوطًا وبناتِه وصاروا بمَنأًى ومأمَنٍ من قريتهم الظّالمة، نزل العذابُ بها، فدمَّرَها اللّهُ بأهلها تدميرًا، وأمطر عليهم منَ العذاب صنوفًا، فكان هلاكُهم لا مثيلَ له فيمن سبقَهم، وكانوا مثلًا وعِبرةً لكلِّ معتَبِرٍ، أنزل اللّهُ عليهم الحجارةَ منَ النّيران، واقتلع جبريلُ قُراهم، فجعل عاليَها سافلَها، وبقي مكانَها بحرٌ لا رَوح فيها ولا نِسْمة ولا حياة، حتّى صارت خرابًا بعد أن كانت عامِرة، وأثرًا بعد عينٍ، ومطمورةً بعد أن كانت ظاهرة.

وترشدُ الآياتُ الكريمة إلى استجابة دعوة المظلوم، ولا سيما إن كان من الصّالحين، وإلى تَوقُّع العذابِ إذا انتشر الشّرُّ وعظُمَ الظُّلْمُ والفساد، وإلى أنَّ الآياتِ مهما كانت عظيمةً لا تستلزم الإيمانَ والطّاعةَ، وإلى أنَّ من لم يَسْبق له الإيمانُ لا يؤمنُ ولو جُلب عليه كلُّ آية، وإلى أنَّ صلةَ الدّين أقوى من صلة النَّسب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاء ودلالتُها:

مـن إكـرام الـلـه لـرسـلـه الاسـتـجـابـةُ لدعائهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ تحتمل أن تكون الفصيحةَ، حيثُ أفصحت عن محذوفٍ دلَّ عليه السّياق، والتّقديرُ: (فاستجبنا له فنجيناه)، أو للتّعقيب؛ لتدلَّ على سُرعة الجواب، كشأن اللّهِ مع

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 83، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 677.

أنبيائه. "أو للتّفريع، يعني: فتفريعًا على دعوته نجَّيناه"[1]، والعبرة: أنَّ التّنجيَة قد حصلت عَقِبَ الدّعاء، وهي دالّة على كرامة رسلِ الله تعالى على الله.

براعةُ التّعبير بصيغة ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾:

يُـنـجـي الـلـهُ رسلَه قبلَ وقوعِ المَهلكة؛ إكرامًا لهم وكراهةَ أن يَرَوا ما يسوؤهم

جاء التَّعبيرُ بمفردة التّنجية دونَ الإنجاء في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾؛ لموافقة دعاء لوطٍ عليه السلام ﴿رَبِّ نَجِّنِى﴾، ولم يقل: (أنجني)، وقد فرَّق بعضُهم بأنَّ الإنجاء: الخلاصُ قبلَ الوقوعِ في المَهلكة، والتّنجيَةُ: تستعمل في الخلاص بعد الوقوع في المهلكة، يُؤيِّد الأوّلَ: قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ [الأنبياء: 9]، فإنّ المراد بالمُنجَين الأنبياءُ، وقد أنجاهمُ اللّهُ منَ العذاب قبلَ وقوعِه على الأمم، ويُؤيِّد الثّاني: قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩﴾ [البقرة: 49]، فإنّ تنجيَةَ بني إسرائيل من آل فرعون، وذبحِ أبنائهم، وتحميلِهمُ الأعمالَ الشّاقّة، كان بعدَ مُدّة منَ الزّمان[2].

دلالةُ إسناد التّنجية إلى ضمير العَظَمة:

النَّجاة منَ الله تـعـالى سابـقـةٌ للعادات

أُسنِد فعلُ التّنجيَة إلى ضمير العَظَمة في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾، للتّعظيم، أي: نجّيناه بعَظَمتِنا وجلالِنا وقُدْرتِنا، وبرحمتِنا ولُطْفِنا، نجاةً تليقُ بنا، وقد دَلَّ هذا الإسناد في هذا السّياق، إلى أنَّ التّنجيَة لم تكن لأحد ولا تكون إلّا بتوفيق الله تعالى، وعَظَمتِه التي تعلو كلَّ السُّنَنِ والعادات.

معنى الواو ودلالتُها:

العطفُ للاقتران والمـشـاركـة في الـحُـكـم، وفيه تـشـريـفٌ للأهل بتلك التّنجيَة

الواو في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ للعطف، وهي

(1) العثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 264.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجز)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 77.

من عطف الأهل على الضّمير العائدِ على لوط، والعطفُ للاقتران والمشاركة في الحُكم، ففيه تشريفٌ للأهل بتلك النّجية.

فائدة ذِكْر لفظ الأهل دون الإضمار:

أُظهر ذِكرُ الأهل في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾، دون الإضمار بأن يُقال: (فنجيناهم)؛ للاعتناء بهم، واحتراسًا من توهّم دخول بعض قومه معهم، ولإظهار معنى الأهل، وأنَّه قائم على أهليّة الإيمان لا النّسب والقرابة والمصاهرة، ولا سيما مع استثناء امرأته.

الأهليّةُ للإيمان لا القرابةِ والمصاهرة

نُكْتَةُ التّوكيد بلفظ ﴿أَجْمَعِينَ﴾:

جاء ذكر لفظ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾؛ تأكيدًا لنجاتهم جميعًا إلّا من استثناه اللّهُ، وهو امرأته عجوزُ السّوء، وفيه رعاية الفاصلة، ونظيره قولُه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ [الذّاريات: 35 - 36]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤﴾ [القمر: 34]، وهو توطئة للاستثناءِ، فإنَّ تأكيد تنجية الجميع، يلزم عنه الإطلاق أو الاستثناء.

تنجيةُ جميع المؤمنين يدلُّ على هلاك جميع المجرمين

نوع الاستثناء ودلالتُه:

أداة ﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ للاستثناء، أي: نجَّينا أهلَه جميعًا ما عدا هذه العجوزَ الهالكةَ، والاستثناءُ متّصل إن كان المراد بالأهل أهلَ بيتِه، وهو منقطع إن كان الأهل من آمن به، كما قال تعالى في قصّة نوح: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: 46].

الأهل على التّحقيق هم المؤمنون

فائدة استعمالِ مفردة ﴿عَجُوزًا﴾:

آثَر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿عَجُوزًا﴾ عن امرأة لوطٍ عليه السلام؛ للإيماء إلى أنَّها مع كونها أصبحت عجوزًا شيخة، وهي كذلك ضعيفةُ الجسم هَشَّتُه؛ فهي تخون زوجَها، وأنَّها استحقت أن تكون

طولُ صحبة الصّالحين إذا لم تنفع صاحبَها فهي وبالٌ عليه

في الغابرين بسبب صنيعها الخبيث، فاستُعمل هذا الوصفُ للذمِّ، ولبيان أنَّها شبّت على الكفر وشابت عليه دون أن ترعوي، أليس بلوغُها الكبرَ من أبلغ النّذر، ومن أعظم العِبَر؟! ومنطقُ الحقّ يقول: إنَّ الإنسان كلَّما كَبِرت سِنُّه نضِجَ عقلُه وصفا ذِهنُه، وزادت خِبرتُه، وقويت فراستُه، وضعُفَت غرائزُه وشهوتُه، ولكنّ عجوز السّوء على خلاف ذلك، ما زادها تراكمُ السّنين وتتابعُ الأعوام إلّا غفلة وحرصًا وضلالًا، وهي قد جمعت أمرين زاداها ذمًّا؛ وهما: صحبة نبيّ الله لوطٍ ﷺ، وتطاولُ العُمُرِ عنده.

لطيفةُ التّعبير بصيغة (فَعول):

طـولُ العُـمُـرِ لا يدفع العقوبةَ

دلّت صيغةُ (فَعول) في لفظ ﴿عَجُوزًا﴾ على المبالغة، والمعنى: أنَّه قد بلغت هذه العجوزُ منَ الكبر عِتيًّا، ودلَّ على شدّة وهنِها، وفَرْطِ عجزِها، ومع ذلك لم يردعها رادعٌ، وهو ما يُؤكِّد المعنى المذكور في النّكتة السّابقة، وأبلغ النّظم ما اجتمعت فيه دلالةُ المفردة مع دلالة الصّيغة.

معنى حرفِ الظّرفيَّة ودلالتُه:

بـلاغـةُ الـحـرف الـقـرآنيّ من بلاغة استعماله

أفاد حرفُ الظّرفيّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الاستقرارَ، أي: متلبِّسةً فيهم تلبّسَ المظروفِ في الظّرف، مع ما يوحي به هذا الاستعمالُ، من كون العجوز غارقةً فيهم، وباقيةً معهم، لا تفارقهم، وليَنفصلَ اتّصالُها بنبيّ الله لوط ﷺ.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾:

اجتماعُ المعاني المتقابلة من بلاغة القرآن وإيجازه

دلّت مفردةُ ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ على معنيين متقابلين: البقاء والمضي، فغَبَرت بمعنى: مضت، وغبرت بمعنى: بقيت؛ لأنَّها بقيت مع الهالكين، بعد أن مضت وتركت زوجَها لوطًا وأبناءَهما، فحَرمَت نفسَها من فرصة النّجاة التي لاحت لها إن تراجعت وتابت، لكنها حنّت لقومها ومالت إليهم، وآثَرتهم فهلكت معهم، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: والغابر الباقي بعد مضي من معه، "والمراد: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾

من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلًا عند مشارفة حلوله بهم، ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ مقدّرة في الباقين في العذاب، بعد سلامة من خرج"[1].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بصيغة اسم الفاعل:

الإنسانُ يختار مصيره، وينتقي سبيله

جاء التّعبير بصيغة اسم الفاعل ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، دون اسم المفعول (المغبورين)، مع أنَّهم مجبورون على ذلك، وهو ممّا قضاه اللّهُ عليهم؛ للإشارة إلى أنّهم اختاروا مصيرَهم ذلك بمحض إرادتهم، وبقيت هذه المرأةُ الهَرِمةُ في قومها باختيارها، لم يُرغمها أحدٌ، وهذا الوصف يدلّ على معنيين متضادين: البقاء والمضي، فهي مضت تاركةً زوجَها وأبناءها المؤمنين، وآثَرت البقاءَ مع قومها، فبئسما اختارت! تترك طريقَ النّجاة، وتُؤثرُ طريقَ الهلاك!.

نوع ﴿ثُمَّ﴾ ودلالةُ استعمالِها:

رتبةُ عذابِ المُهلكين مباينةٌ لرتبة نجاة المؤمنين

استعمل النَّظمُ الكريم حرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾؛ لبيان أنَّ إهلاكَ قومِ لوطٍ رتبةٌ مختلفة عن نجاة لوط عليه السلام ومن معه، فنوعُ التّراخي هو الرّتبيّ لا الزّمانيّ؛ "لأنَّ إهلاك المكذبين أجدرُ بأن يُذكر في مقام الموعظة من ذكر إنجاء لوطٍ المؤمنين"[2] فالتّراخي هنا الرُّتبيّ بينَ المُهْلَكين والنّاجين، للبَون الشّاسع بين منزلتهما.

بلاغة استعمال مفردة التّدمير:

التّعبير عن هول عقوبة قوم لوط وفظاعتها، بما يتناسب مع فظاعة جُرمهم

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة التّدمير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ دون لفظ الإهلاك؛ لأنَّ التّدمير في الأصل لا يكون للأحياء من إنسان أو حيوان، وإنّما يكون للقرى المُحصَّنة والأبراج المُشيّدة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: 16]، وقولِه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 115.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 181.

بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ [الأحقاف: 25]، والتّعبير به هنا يدلُّ على شدّة تنكيلِ الله بهم، وشِدّةِ العذاب الذي لا تصمدُ له قِلاعٌ ولا حُصونٌ، ولا تمنعه حواجزُ ولا أسوارٌ، فالتّدمير في الآية تصوير لحقيقة العذاب الشّديد، وكيف سلَّط اللّهُ على قُراهم دمارًا أتى على بيوتهم ونواديهم ومجامعهم، وكيف سلّط اللّهُ الدّمار على أجسادهم، عذابًا لو سُلّط على جبال راسيات لدمّرها تدميرًا.

نُكْتَةُ إسنادِ لفظ التّدمير إلى نون العَظَمة:

عـقـابُ الـلـه لا يُطاق، ونقمتُه تـلـيـقُ بجلاله وعَظَمتِه

أُسْنِد لفظُ التّدمير لضمير العَظَمة ﴿دَمَّرۡنَا﴾، والمعنى: أي بعظمتنا وجلالنا، دمرناهم تدميرًا مهولًا، يليق بقوتنا وعظمتنا، فعقاب الله تعالى لا يطاقُ، ولو شاء لأهلكهم بأيسره وأهونه، لكنّه الانتقامُ الذي يليق بجلال اللّه وعَظَمته، وغضبه وغيرته.

دلالةُ وصفِ قوم لوطٍ بـ ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾:

ذَمُّ قـومِ لـوطٍ وتـحـقـيرُهـم بـالإخـبـار عن تـأخُّـرهـم وتقاعسهم

جاء وصفُ قومِ لوطٍ ﷺ بـ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾؛ استهانةً بهم، وتحقيرًا من شأنهم، وبيانًا لعدم الاعتداد بذكرهم، إلّا بهذا الوصف الدّالّ على إهمالهم، والمقصود بالآخَرين قومُ لوطٍ ﷺ، وامرأتُه التي آثرت الكفرَ على الإيمان، مع كونها أحقَّ من يؤمن بنبيّ اللّه لوط، زوجها وعشيرها وقيّمها وبعلها، "وما أحسنَ التّعبيرَ عنهم بلفظ ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ لإفهام تأخُّرهم من كلّ وجه"[1].

وجهُ الصّيغة الصّرفيّة في ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾:

اخـتـيـارُ قـوم لـوطٍ مصيرهم بـاخـتـيـارهـمُ الـتّـأخُّـر والتّقاعس

(آخر) صيغةُ تفضيل على وزن (أَفْعَل)، وهي هنا على غير بابها، إذ ليس هناك أخير وآخَر، وفي صيغة التّفضيل دلالةٌ على أنّهم سبقوا بهذا الوصف وفاقوا فيه غيرَهم، حتّى فاضلوهم بهذه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 84.

الصّفة الذّميمة التي أودت بهم، وتسبّبت في هلاكهم، وفي إسناد التّأخير لهم إشارةٌ إلى تعمُّدهم التّأخير، تأخّروا عن دعوة نبيّ اللّه لوطٍ ﷺ وتقاعسوا فهلكوا، وعادةُ القرآن التّعبيرُ بالظّاهر موضعَ المُضمَر، وبالصّفة موضعَ الاسم، فلم يقل: (ثمّ أهلكناهم)، أو: (أهلكنا سائر القوم)؛ ليُسجّلَ عليهم سببَ هلاكِهم ودمارِهم، وهو تقاعسُهم عنِ الحقّ، وتخلّفُهم عنِ اللّحاق بلوط ومَن آمن معه.

معنى (الواو) ودلالتُها:

العقوبةُ الرّهيبة تَعُمُّ قومَ لوطٍ، لا تستثني أحدًا

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم﴾ للعطف، وتقتضي الاقتران، حيثُ عطف جملة على جملة، ويمكن القول: بأنّه عطف فعلًا على فعل، والعطف يقتضي المشاركةَ في الحُكم، فجمع اللّهُ لهم بين عذابين شديدين: الرجمُ بالحجارة عقوبةً لشذوذهم وهتكِهم للأعراض، وقلبُ قُراهم رأسًا على عَقِبٍ؛ لانقلاب فطرتهم، فكان الجزاء من جنس العمل.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الإمطار:

تشبيهُ العذاب بالمطر تهكُّمٌ بالقومِ، وعذابٌ فوقَ العذاب

لفظ الإمطار يُستعمل غالبًا في الشّرِّ، بخلاف (مطر) فيكون غالبًا في الخير وفي الماء خصوصًا، ولا يُقال أمطرهم اللّه تعالى إلّا في العذاب[1]، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾ [هود: 82]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ [الحجر: 74]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، ولم تأت إلّا في عذاب هذه القرية التي استحقّتِ الرّجمَ بالحجارة، وأن تُقتَلَع من جذورها، وأن تُقلبَ رأسًا على عقب، حتّى عُرفت بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ [الفرقان: 40][2]، ففي الإمطار

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 126.

(2) رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 8/ 458.

تشبيهُ نزولِ حجارة العذاب بنزول حبّات المطر؛ تهكُّمًا بالقوم، وزيادةً في العذاب.

غرضُ إسناد فعل الإمطار إلى نون العَظَمة:

تهويلُ العذابِ وتفخيمُ العقابِ رحمةٌ باللّاحقين

أُسنِد فعلُ الإمطار في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ إلى نون العَظَمة؛ لتعظيم الفعل وتهويله، أي: أمطرناهم بعظمتنا وجلالنا، فهو مطر عظيم وانتقام شديد يليق بجلالنا، وشديدِ انتقامِنا منَ الظّالمين المُعاندين، وفيه منَ التّهويل والتّفخيم ما لا يكون في إسناد الفعل إلى غير مصرَّحٍ به، كأن يُقال: (وأُمطروا)، فكيف إذا كان التّصريح بالضّمير العائد على العظيم، وفي ذلك رحمةٌ بمَن بعدَهم؛ فإنَّ مَن يعلم ما وقع للمتقدّمين من شديد العذاب، يَرْدَعُه عنِ المُضيِّ فيه، والعناد عليه.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاء وتقديمِه:

العـذابُ أحاط بالمجرمين قصدًا شاملًا للجميع

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ حرفِ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾؛ لتضمين فعل ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ معنى فعلِ الإرسال[1]، فهو مطرٌ مرسَلٌ منَ الله تعالى، مقصودٌ به قومُ لوطٍ عليه السلام؛ للعذاب والعقاب، وقد أفاد استعمالُ هذا الحرف الإحاطةَ والشّمول، حيثُ غمرهم المطرُ وشملهم، فلم يخطئهم، ولم يصب غيرَهم، فجاء مخصوصًا بهم؛ ولذلك قُدِّم الحرفُ في النّظم، فلم يقل: (وأمطرنا مطرًا عليهم)؛ وقد دخل حرفُ الاستعلاء على الضّمير الجمعيّ في ﴿عَلَيْهِم﴾؛ لأنّها لم تترك منهم أحدًا، ولم يَنْجُ منَ العذاب ناجٍ.

دلالةُ استعمالِ مفردة ﴿مَّطَرًا﴾ نكرةً:

حجارةُ العذاب نزلت متتابعةً حتّى بلّلت الأرضَ من دماء المجرمين

دلَّ استعمالُ مفردة ﴿مَّطَرًا﴾ على تتابع هذه الحجارة المُسوَّمة وكثرتها، ومجيئها منَ السّماء، حتّى أهلكتهم وطمرتهم، وفيه معنى

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/ 186.

التَّهكُّم؛ لأنّ المطر لا يأتي إلّا في الخير، فأمطرتِ السّماءُ عليهم، ولكنّها أمطرت حجارةً من طين متصلِّبٍ متينٍ تَرجمُهم، ونُكِّر لفظ ﴿مَّطَرًا﴾ للدّلالة على النَّوع، أي: أرسلنا عليهم نوعًا منَ المطر عجيبًا، والمقصودُ بهِ الحجارة[1]، وقد بيّنه قولُه سبحانه: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ [الحجر: 74][2]، أي: مطرًا غيرَ معهود[3].

نوع (الفاء) ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ عاطفةٌ؛ لتعقيب الجملة المعطوفة بالفاء على التي قبلها[4]، وهذا من تعقيب الإمطار بالاعتبار.

نُكْتَةُ التّعبير بلفظ المساءة:

أعظمُ العذاب ما كان عبرةً للآخرين

أخبرتِ الآيةُ في قوله تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، عمّا وقع للمُنذَرين من قوم لوطٍ من المساءة التي لحقتهم، وهي حتفُهم وموتُهم واندثارُهم، والمخصوص بالذّمّ محذوف، وهو المطر، أي: ساء مطرُ المنذرين مطرُهم[5]، والتَّعبير بهذا اللّفظ لبيان أثره فيما بعد؛ فإنَّ قصَّتَهم قد عرفتها البشريَّةُ، وبلغتِ العربَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ [الفرقان: 40]، ففيه تلويحٌ بالعذابِ لجميع المُنذَرين.

عِلّةُ الإضافة في ﴿مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾:

عذلُ الله تعالى يتجلَّى في بيان أسباب العقوبة

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ إضافةُ تخصيص، أي: مطرٌ للمُنذَرين؛ لبيان استحقاقهم هذا العذابَ الذي عمّهم؛ لما سبق من إنذارهم، فيكون ذكرُ الإنذار من باب ذِكْر عِلَّة العذاب، فهو من إضافة النّتيجة للسّبب، أي: بسبب إنذارِهم الذي أهملوه

(1) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 39.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/ 409.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 157.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 5.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 629.

وتغافلوا عنه، أُمطِروا مَطرَ السَّوْء، وهذا من بيان عدلِ اللّه تعالى، وهذا من معهود القرآن عند الحديث عن عقوبة الهالكين، يبيّن استحقاقَهم لذلك بما أسلفوا، ويُقرّر عدلَ اللّه تعالى في حُكمه.

دلالةُ التّعبير بمفردة الإنذار:

لا ينزل العذابُ إلّا بعد إنـذارٍ، ولا يُعـاقَبُ إلّا الفُجّار

جاء استعمالُ مفردة الإنذار في قوله تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾؛ لأنَّ الحُجَّة أُقيمت عليهم، بما سبق من إنذارهم، "وإنّما قال: ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾؛ لبيان أنّها قد قامت عليهمُ الحُجّة ولم يُنذَروا بالعذاب إلّا بعد أن أعذر منهم"[1]، ففيه دلالةٌ واضحة على أنَّ اللّه تعالى إنَّما يُحاسِب النّاسَ بأعمالِهم التي ارتكبوها، وجرائمِهمُ التي اقترفوها، وأنَّ ذلك لم يكن إلّا بعد إنذارٍ، وفي التَّصريح بهذا اللّفظ إيماءٌ إلى أنَّ العذاب كان شديدًا؛ لأنَّه عَلَّلَ عذابَهم، وبيَّن سببَ عقابِهم.

معنى التّعريف في لفظ ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾:

الـــلّام للعـهـد وهــو الأظـهـر، وتحتمل الجنس

اللّام في لفظ ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ للعهد الذّهنيّ، والمعنى: (فساء المطرُ مطرُهم)؛ ذَمًّا وتشنيعًا وتهويلًا للمطر الذي أهلكهم وطمرهم، والمعنى: (ساء مطرُ من أُنذِروا)، وعَبّر بالوصف دون الضّمير، لبيان استحقاقهم لهذه العقوبة، لأنّهم أُنذِروا فلم يَرْعَووا، وهذا يناسبُ المقام أن تكون اللّام للعهد الذّهنيّ، "والمخصوص محذوف، أي: ساء مطرُ جنسِ المُنذَرين مطرُ أولئك المعهودين"[2]، "ولو كان ساء بمعنى قَبُحَ على أصله، جاز اعتبارُ العهد من غير تقدير"[3].

وتحتمل اللّام أن تكون للجنس؛ لتشملَ كلَّ من أُنذِر وعوقِبَ؛ لأنَّ عقوبتهم فاقت كلَّ عقوبة إلَهيّة، والعِلّة في كون اللّام للجنس أن تشمل كلَّ من أُنذر، "حتّى يصِحَّ وقوعُ المضاف إليه فاعل ساء، والمخصوص

(1) العثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 266.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 282.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 150.

بالذّمّ محذوفٌ، وهو مطرهم"[1]، فاللّام في ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ للجنس، "إذ لم يُرِد قومًا بأعيانهم، أي: بئسَ مطرُ الذين أُنذِروا بالعذاب مطرُهم"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّدمير والإهلاك:

الإهـلاكُ أعـمُّ مـنَ التَّـدمـير، والتّدمير ينصرف إلى كـلّ مـا هو ظاهر

التّدمير غرضه الإفساد والإعطاب والإهلاك، أمّا الإهلاك فيقع بالتّدمير كما يقع بغيره، والتّدمير ينال القرى والمدن والمنشآت، والإهلاك ينصرف إلى النّفوس والأرواح، من إنسان أو حيوان أو نبات، وقد يُصْرَفُ الهلاك إلى القرية؛ لأنّ هلاك أهلِها خرابٌ لها، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾ [محمّد: 13]، وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: 16].

المطر والغيث:

الغيثُ محضُ رحمةٍ، بخلاف المطر فقد يأتي بالشّرِّ والدّمار

المطر قد ينزل لحاجة ولغير حاجة، وقد ينزلُ في الخير وينزل في الشّرّ، أمّا الغيثُ فإنّه لا ينزل إلّا بعد ترقُّب وانتظار، فيُغيث النّاس ويسقيهم، ويروي الزّرع والضّرع، فلا ينزل الغيثُ إلّا بخير، والمطر قد ينزل بالخير وقد ينزل بالشّرّ، والغيث دائمًا رحمة، والمطر قد ينزل بالعذاب، فتحدُث السُّيول، وتُدَمَّر البيوت، وتنهارُ السّدود، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨﴾ [الشّورى: 28]، والذي أصاب قومَ لوطٍ مطرُ عذاب، حجارةٌ من طين متصلّب متينٍ، مُصَوّبةً عليهم، لا تخطئهم: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾[3].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 148، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 261.
(2) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 67.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 391، والعِزّ بن عبد السّلام، تفسير القرآن: 3/ 143، والبروسويّ، روح البيان: 4/ 352.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»